لطفاً: باللباس الرسمي

ناصر الرباط ❖

توقّف كعادته، كلّ يوم، قبل أنْ يخرج، ونظر إلى نفسه في المرآة البيضاويّة قرب باب المنزل. طالعتْه عيناه الخضراوان اللتان تذكّرانه بعينيْ والده، بنظرتهما الفاحصة، بل الثاقبة، التي جعلت العديدَ من الناس يقرأون فيهما مَخايلَ ذكاءٍ شديدٍ حاول كلّ حياته أن يُثْبتَه. أمّا أنفه فلا يدري ممّن ورثه، ولاسيّما استطالة أرنبته وتدبّبها وميلها إلى الأسفل فوق شاربَيه الكثّين اللذين ابيضّا قبل الأوان، على عكس شفتيه المزمومتَين وذقنه الصغيرة، التي ما زالت شفتَيْ طفلٍ وذقنه. وأمّا شعرُه فما زال يثير المشاكل: كتلةٌ كثّةٌ فضيّةٌ مستعصيةٌ على أيّ مشط أو فرشاة، متناثرةٌ في كلّ اتّجاه. ما زال، كما يقول لنفسه، راضيًا عن التعبير العامّ لوجهه: وجه مفكّر، ووجهٌ معبّر إلى أقصى درجة، ولا سيّما عندما يكون هدفُ التعبير السخريةَ والتندّرَ على ما حوله.

ملابسُه اليومَ مناسبةٌ تمامًا للصورة التي يريد أن يخلّفها في أذهان سامعيه. الحقّ أنّه لا يذكر متى كانت آخر مرّة خطّط فيها لمظهره بمثل هذه الدقّة، ولكنّه برّر ذلك لنفسه بأنّ المناسبة مهمّة. يجب أن يكون أنيقًا أناقةً متواضعة، ولكنْ متميّزة من دون تكلّف: أناقة فنّانٍ ذوّاقٍ صَرَفَ جلّ عمره في دراسة وتدريس أصول الفنّ ونظريّاته. بدأ بسترته المفضّلة الخضراء، التي اشتراها من أحد أعرق محلاّت لندن عندما ذهب في رحلة بحثٍ قبل سنوات، ومازالت تحتفظ بتموّجاتها الهادئة والناعمة. وارتدى تحتها بنطالاً سكّريّاً يضيق حول قدميه، اللتين انتعلتا الحذاءَ البنّيّ الداكن الذي اشتراه مع السترة الخضراء، وقد استُهلكتْ نعلُه خلال أشهرٍ قليلة، ولو أنّ السطحَ مازال لامعًا ومتماسكًا كما لو أنّه اشتراه البارحة.

لكنّ أهمّ عنصرٍ في مظهره اليوم، والمعبِّر الوحيد عن تفرّده، كان كنزته الصوفيّة الخمريّة الغامقة التي اعتاد ارتداءها بدلاً من القميص ورباط العنق. هذه نقطة رمزيّة ولكنّها مهمّة بالنسبة إلى رؤيته لنفسه: فهي تدلّ على تعاليه عن المواضعات المصطنعة التي سيطرتْ على الناس في هذا الزمن الرديء. فبعد السنوات العشرين التي قضاها مدرّسًا في الجامعة، ما زال متوحّدًا، مترفّعًا، وصريحًا إلى حدّ الفجاجة: يرفض أن يتملّق رؤساءه بالكلام المعسول، وينأى بنفسه عن الحلقات والشلل والمناسبات الاجتماعيّة الفارغة التي قد تمهّدُ له الطريقَ عند أصحاب الحظوة.

لقد خسر «آن» في منتصف تلك الفترة، ليس لأنها كانت متكالبةً على الجاه والثروة بل كانت قانعةً راضيةً عن نفسها، وعن خيارها المتمثّل فيه، وعن فنّها وفخّارها، ولم تهتمّ بالشهرة والسمعة الفنّيّة. كانت هي الأخرى ذاتَ مبادئ ومُثُل، ولكنّها أكثرُ توازنًا وواقعيّةً، وأكثرُ معرفةً بالطبيعة البشريّة.

فكّر: لو كانت آنْ معه اليوم لكبرتْ فرحتُه، لأنّها كانت ستَشْعر بالفخر بما حقّقه، وربّما بردّ الاعتبار: فاحتفالُ اليوم دليلٌ على أنّ تمسّكَه بمبادئه ومثابرته على كتابته وبحثه قد أثمرا اعترافًا وتقديرًا من المجتمع الأنانيّ المتكالب على المادّة. لو كانت آنْ معه اليومَ لرافقتْه إلى الحفل، ولقطفتْ معه ثمرةَ جهدٍ اشتركا فيه معًا. لكنّها ملّت الانتظارَ والمراوحةَ بين يأسٍ مقعِدٍ وتعلّقٍ بأملٍ ما فتئ يلوح بعيدًا، فقرّرت العودةَ إلى بلادها والعيشَ «بهدوءٍ وسلام» كما قالت. ولمّا سألها: «وأنا؟» أجابته بعد برهة تفكيرٍ: «أنتَ! أنت ثائرٌ من غير قضيّة، وأنا مللتُ الثورةَ الزائفة.» كاد أن يغضبَ منها، ثم لاحظ الدمعَ في عينيها والرجفةَ في صوتها، فتركها تغادر. آهٍ، لو كانت معه اليوم! ولكنْ، مَن يدري، ربما من الأفضل أنّها تركته، فانحاز إلى وحدته المطبوعةِ فيه أصلاً، وتفرّغ تمامًا لأبحاثه، فأنجز كتابَه الموسوعيّ عن الفنّ والثقافة في الأندلس.

لم يكن يتوقّع أن يحصلَ على جائزةٍ تقديريّةٍ عن عمله الأكاديميّ. وممّن؟ من غرفة التجارة العربيّة ـ الإسبانيّة الحديثة التأسيس، ولكن القويّة التأثير، وعلى رأسها ذلك التاجرُ النافذُ السطوةِ والفاحشُ الثراء، نعمان السيّد، القنصلُ الفخريّ للمملكة الإسبانيّة. لقد استطاع نعمان السيّد خلال فترةٍ قصيرة أن يُغرقَ السوقَ بسلعه المتميّزة، وأن يحتلّ مساحةً إعلانيّةً هائلةً على شاشات التلفزيون ويافطات الشوارع ؛ فأنّى ذهب المرءُ، في هذه الأيّام، لا بدّ أن يطالعَ صورةً غريبةً وأليفةً في الوقت نفسه: فتاة رائعة الجمال تمدّ للرائي بعضًا من منتجات نعمان السيّد بدلالٍ وغنج، واقفةً على شرفةٍ لطيفةٍ في مبنًى جصّيّ بسيطٍ أبيض، وخلفها شبّاكٌ خشبيٌّ مدهونٌ بالأزرق الفاقع

❖ ـ كاتب سوريّ، وأستاذ في جامعة أم. آي. تي (كامبريدج).

يُفترض أن يستدعيَ إلى المخيّلة بيوتَ الأندلس، وأصصٌ فخاريّةٌ تتدلّى منها زهورٌ حمراء (تذكّره بأصص آن التجريبيّة التي ما زالت تحتلّ زوايا عديدةً في منزله، وإنْ ذبلتْ ورداتُها منذ زمن طويل).

ما إنْ وطئتْ قدماه الشارعَ حتى طالعته صورةُ فتاةٍ سمراءَ ملصقة على زجاج دكّان أبي خليل البقّال. كانت واقفةً على شاطئ لازورديّ، تعضّ على زيتونةٍ سوداءَ بنهمٍ واضح. فأشاح بصرَه بسرعة، لكي يزيلَ ما تسلّل إلى ذهنه عن سوقيّة نعمان السيّد في الترويج لبضاعته؛ فقد كان ذاهبًا لمقابلة الرجل في مناسبةٍ تجمع نخبةً من شخصيّات البلد، وفي واحدٍ من أرقى نواديه. حاول أن يتجنّب التفكيرَ بالسيد ومنصبِه الفخريّ، وأموالِه، وفتياتِه، وكرشِه الذي يتدلّى أمامه، وسيجاره الكوبيّ الأسود الذي يمتدّ خارجًا من فمه النهم شبرًا وأكثر، كأنّه يحاول من خلال هذين النتوءيْن أن يحتلّ فراغًا أكبر ممّا يحتلّه عبادُ الله العاديّون، إثباتًا لمركزه وإعلانًا عن ثروته.

وكانت آخرُ صرعة استحدثها السيّد هي شراءه لبيتٍ قديمٍ، وتحويلَه إلى قصر غرناطيّ حديثٍ ومشوّه، فيه الكثيرُ من انطباعاتِ الملصقات الدعائيّة السياحيّة الإسبانيّة الحديثة التي يروّجها. وطبعًا لم يجد لقصره الفخم اسمًا غيرَ «قصر الحمراء،» ذلك الاسمَ المبهرج والسياحيّ الذي بات علَمًا لحضارة افتُتِنتْ بالجمال والبذخ والتبذير، حتّى بادت وهي لاهيةٌ عن مصيرها. وصار قصرُ الحمراء هذا موئلَ الاحتفالات الأوّلَ لكلّ أبناء الطبقة الغنيّة الذين استقطبتهم الهالةُ الفنيّةُ والثقافيّةُ التي أحاطت به، خاصّةً بعد أن أطنبتْ أقلامُ الكتّابِ المأجورين في الإشادة بالذوق الرفيع الذي حَوّل هذا البيتَ إلى فراغ سحريّ يلجُ داخلُه التاريخَ العابقَ بالجمال. ولكنْ كان لصاحبنا رأيٌ آخرُ: فكلُّ ما حقّقه السيّد، بالنسبة إليه، هو مسْخُ مَعْلَمٍ معماريّ، وإعادةُ سكبه على شكل قصر ينتمي إلى مدن ديزني أكثر من انتمائه إلى الأندلس. وعلى الرغم من سمعتِه كخبيرٍ في الفنّ الأندلسيّ، فإنه لم يجد مَن ينشر له نقدَه لأنه «سلبيّ ومثبطٌ للنهضة السياحيّة والفنّيّة» كما ادّعوا. لا يهمّ. اليوم سوف تكون الكلمةُ له!

مضى صاحبُنا باتّجاه البلد القديم إلى البيت الغرناطيّ. مازالت أمامَه ساعةٌ تتيح له السيرَ بهدوء، والتفكيرَ بكلمته التي سيلقيها أمام المُحتفين به. فهذه المناسبة ليست كغيرها: إنها مناسبةُ إثبات الذات. وهي أيضًا فرصةٌ لإعلاء شأن الفكر قليلاً، بعد أن داستْه الدعايةُ طويلاً. عليه أنْ يقول كلمتَه بحنكةٍ وذكاء. سيستعمل التاريخَ غطاءً يمرِّر تحته كلَّ انتقاداته. سيُخْبر سامعيه عن «الحمراء» الأصليّة وعن تكامل الذوق فيها، وكيف تنساب العمارةُ بارتخاءٍ مدروسٍ وآخّاذ، متداخلةً بين الجنائن المنسّقة بحساسية. سيُخْبرهم عن الشعر والموسيقى اللذين ترعرعا في تلك البيئة المرهفة الإحساس، وأطربا ـ وما زالا يطربان ـ كلَّ متذوّقي العربيّة حتى اليوم. سيُخبرهم عن إسهام النخبة الغرناطيّة في خلقِ بعضِ ذلك الفنّ والشعر والموسيقى من خلال أفرادٍ أفذاذٍ نبغوا من لدنها وأعطوْا عطاءهم وهم يتنعّمون برغد العيش فيها. وسيتركهم عند هذه النقطة من دون أيّ تعليقٍ على الحاضر لكي يستنتجوا بأنفسهم ما يرمي إليه. سيتركهم لكي يروْا بأمّ أعينهم المعادلةَ المائلةَ عندما ينظرون إلى حاضرهم وثقافتهم، فيقارنوا بينها وبين ثقافة النخبة الغرناطيّة الماضية. سيومئ ولن يصرّح. لربّما نفعَ الإيماءُ حيث فشل النقدُ الصريح، ولو أنّه يشكّ في ذلك.

زاد شكّه يقينًا عندما انتبه إلى أنّه كاد يبلغ مقصدَه؛ فواجهةُ «قصر الحمراء» تبدو في آخر الشارع الذي يسير فيه. وانتبه، للمرة الأولى، أنّ بشاعتها تزداد كلّما اقترب الإنسانُ منها: فمن أوّل الشارع لا يظهر من الواجهة سوى حجمها غيرِ المتناسب مع محيطها، وسوى بياضها الصارخ المتنافر مع الألوان الترابيّة الكامدة التي تؤطّرها. ولكنْ يزداد التنافرُ وضوحًا بعد أن يبلغ المرءُ منتصفَ المسافة، فتظهر القبّةُ الذهبيّة المسطّحة فوق الباب الخشبيّ المدهون بالأزرق والمضرّب بالمسامير المذهّبة. أمّا عندما يقترب المرءُ أكثر، فإنّ المنظر يصبح مضحكًا ومزعجًا بحقّ: فتلك المساحة البيضاء الحياديّة نسبيًا تختفي تحت خليطٍ متضاربٍ من الألوان والانعكاسات التي، على بشاعتها، ترهق العينَ بمجرّد النظر إليها. فقد امتدّت على طول الواجهة نوافذُ صغيرةٌ مقنطرةٌ، بأقواسٍ على شكل حدوة الفرس (فالمفروض أنّنا الآن في الأندلس!) مليئةٍ بمئات القطع من الزجاج المعشّقِ والملوّنِ بألف لونٍ ولون، ولو أنّ الطاغي فيها هو الأحمر الفاقع والذهبيّ الجارح والأزرق العميق. وكأنّ

هذه السيمفونيّة النشاز من الألوان غيرُ كافية؛ فقد أضيفت على كلّ النوافذ سياجاتٌ حديديّةٌ مشغولةٌ ومدهونةٌ بالأزرق، عُلّقتْ عليها الأصصُ الفخاريّة التي تُنبت، كما يبدو، ورودًا بلاستيكيّةً حمراءَ فاقعةً لا تذبل ولا تحتاج إلى سقي. وجاءت ثالثةُ أثافي التضارب اللونيّ على شكل بوّابٍ ضخم الجثّة، مفتولِ العضلات، طويلِ الشاربين، غامقِ البشرة، يقف على يمنة الباب، وهو يرتدي ملابسَ لا شكّ في أنّها مستوحاةٌ من صور فنّاني القرن التاسع عشر الاستشراقيين: فتحتَ عمامةٍ أرجوانيّة هائلة الحجم تنسدل حتّى الحاجبين، ارتدى بوّابُنا قفطانًا فضفاضًا لازورديّاً، ولبس تحته قميصًا أصفرَ، وتمنطق بنطاقٍ أبيض مضرّبٍ بالمسامير المذهّبة، وعلّق على جنبه سيفًا مقوّسًا لا ريب في أنّه استعاره من مخلّفات استديوهات التلفزيون. وكأنّما لم يكتفِ البوّابُ بذلك التنافر، إذ بدت من تحت القفطان ساقا بنطالٍ أخضرَ حريريّ وفضفاض، تضيق نهايتاه فوق مداسين أصفرين فاقعين كادت أطرافُهما أن تتفتّق تحت ضغط قدميه الكبيرتين.

اقترب صاحبُنا وهو يحدّق بالبوّاب مذهولاً ومشمئزّاً. ولم يفته أن يلاحظَ أنّ البوّاب، وهو يفتح له البابَ بحركةٍ مسرحيّةٍ مُبالغٍ فيها، كان يرمقه شزْرًا هو الآخر. فعلّل ذلك بأنّ البوّاب يتعجّب من تناسق ألوان هندامه، كما كان هو يستغرب من تنافر ألوان ثياب البوّاب؛ فالدنيا أذواق كما يقولون. ولكنّه لم يُعِرِ الأمرَ كثيرَ التفاتٍ ودلف داخلاً. فلاحظ مباشرةً أنّ مستوى الإضاءة انخفض بشدّة، وكذلك مستوى الضوضاء ؛ فبعد ضجيج المارّة وزعيق الباعة وصرير دواليب السيّارات والطنابير وهدير الحافلات والشاحنات وعويل زمامیرهم في الخارج، طالعتْ أذنيه موسيقى خفيفةٌ فيها وشيٌ من الفلامنكو، ولكنّها خافتة بحيث لا تلفت السمعَ إلى وجودها. قال لنفسه: «هذا دليل ذوقٍ مدروس.» ولما ابتدأتْ عيناه بالتعوّد على ما حوله في بهو الدخول الخافت الإضاءة، لاحظ على اليمين لوحةً خشبيّةً مزخرفةً، عليها يافطةٌ مكتوبٌ عليها بخطٍّ هندسيّ عريض: «عذرًا، القصر مغلق لأجل مناسبةٍ خاصّة، حفل غداء غرفة التجارة العربيّة ـ الإسبانيّة على شرف الدكتور جميل سعد بمناسبة منحه جائزةَ الحمراء التقديريّة.» ووجد ملصقًا على زاوية من اليافطة، صورة قديمة له بالأبيض والأسود، عندما كان شعرُه ما يزال أسودَ، ومستقبلُه ما يزال واعدًا. استغرقتْه خواطرُ تداعت إلى ذهنه، فلم ينتبهْ إلى النادل الذي اقترب منه حتى صار واقفًا أمامه مباشرة. رفع رأسَه عن اللوحة، وعلى وجهه ابتسامةُ الرضا عمّا قرأه والحنين إلى ذكريات الماضي الذي أثارته فيه الصورة. لم يكن مهيّأً لمواجهة التعبير الهازئ والغاضب الذي واجهَه به النادلُ المسربلُ بالأسود من تحت ياقته البيضاء المنشّاة إلى كعب حذائه، ولا لصدِّ الحركة المفاجئة والغريبة التي قام بها النادل، إذ إنّه فردَ يديه ونفش صدرَه بتحفّزٍ وعدوانيّةٍ ليمنعه من الخطو إلى الأمام. وقبل أن تسنحَ له فرصةُ التساؤل، بادره النادلُ بسخريةٍ متعالية:

ـ لوين يا أستاذ؟

أجاب: «عا الحفلة،» ودفع بقدمه نصفَ خطوة. ولكنّ النادل لم يفسحْ له المجال، وأعاد الاستفهامَ وهو يرمقه بقرفٍ مبالَغٍ فيه من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه:

ـ ليش حضرتك معزوم؟

أجاب وقد بدأ الغضبُ المختلط بالتعجّب من هذه المقابلة الرعناء يطغى على صوته:

ـ طبعًا معزوم، ومعي بطاقة الدعوة.

ـ وما دام معك بطاقة الدعوة، ما قريت شو مكتوب فيها قبل ما تشرّف لعنّا اليوم؟

فزعق فيه: «لأ، ليش شو مكتوب فيها؟»

هدر النادلُ، ورذاذُ لعابه يتطاير من شفتيه:

ـ مكتوب يا أستاذ، «لطفًا: باللباس الرسميّ» وبها المنظر ومن غير كرافة (ربطة عنق) ما في دخول!

كامبريدج